مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (21)– العدد (02)(ديسمبر، 2020) - ص 737 - 750
ISSN 1111-5149 /E.ISSN 2430-2588

الإسلاميات التطبيقية عند محمد أركون: معالم وأهداف

Applied Islamology in Mohammed Arkoun's Work: Characteristics and Objectives

حمروني الكيسة،[1] (جامعة الجزائر2)، hfkaissa@outlook.fr

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2020-05-10	2020-10-21

ملخص

نظرا لغياب أبحاث أكاديمية تشرح ما يجعل من أعمال أركون المندرجة في ثنايا "الإسلاميات التطبيقية" أو "نقد العقل الإسلامي" مشروعا فكريا يهتم بدراسة الإسلام كقرآن وحديث وممارسات دينية، نقترح في هذه الورقة البحثية محاولة فحص هذا المشروع لفهم ما يكتنفه من دلالات خاصة لمعرفة إلى أي مدى يمكن ان يكون" نقد العقل الإسلامي"، استراتيجية معرفية كفيلة بإخراج هذا العقل من السياجات الدوغمائية (clôtures dogmatiques)، وتساهم في فتح آفاق فكرية جديدة أمامه؟ فبعد توضيح معنى علم الإسلام اعتمادا على تعريف أركون له، وعلى أساس المفاهيم المركزية التي استخدمها، نعمد إلى بيان مهامه وإحصاء الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها في مسعاه العلمي باستعمال منهجية التحليل التي تفرضها طبيعة الموضوع المطروح.

أما الهدف من هذا البحث فهو إبراز قيمة المقاربة النقدية في دراسات أركون الإسلامية، واكتشاف ما يحمله فكر هذا الأخير من معاني وهذا استنادا إلى مؤلفاته كمرجعيات أساسية. بعد عرض النتائج المستخلصة، نختم العمل ببعض التوصيات لعلها تفيد القراء المحتملين.

كلمات مفتاحية

مشروع، إسلاميات تطبيقية، عقل إسلامي، استراتيجية معرفية، مقاربة نقدية.

Abstract

Noting the absence of academic works explaining how Arkoun's work entitled "Applied islamology, Science of Islam, or Critique of Islamic Reason" can constitute a solid theoretical project aimed at studying Islam both as a corpus, hadith, and religious practice, we propose to examine to what extent Arkoun's critique of Islamic reason can constitute a cognitive strategy capable of taking it out of its dogmatic enclosures in order to open up new horizons for it. We will try to clarify the project in question by trying to make its content more explicit.

First, by refining the definition of the project in question, based on Roger Bastide's model of applied anthropology and Gaston Bachelard's rationalism. Secondly, by making explicit the objectives of this approach, and finally by elaborating a more explicit idea of Arkounian thought. Some useful recommendations are then made to his potential readers.

Key words

Project, Applied islamology Islamic reason, cognitive strategy, new horizons.

1- حمروني الكيسة

مقدمة

يندرج هذا البحث بصورة عامة ضمن حقل الدراسات المبحوثة في الإسلام والفكر الإسلامي، ويتمحور على وجه التحديد حول "علم الإسلام" أو "الاسلاميات التطبيقية التي دشنها المفكر الراحل محمد أركون في السنوات السبعينات عندما كان طالبا في جامعة السوربون الفرنسية أين تعرف على مفكرين وأساتذة باحثين اهتموا بالدراسات ذات الصلة بالموضوع أمثال لويس ماسنيون (Louis MASSIGNON) الذي عُرف باهتمامه الكبير بالتصوف الإسلامي وبفكر الحلاج، وهنري لاووست (Henri LAOUST) المهتم بالفكر الحنبلي، وريجيس بلاشير (Regis BLACHERE) الذي ترجم إبراهيم الكيلاني ومعاني القرآن الكريم، ومكسيم رودنسون (Maxime RODINSON) الذي ألّف حول "جاذبية الإسلام" و"الإسلام والرأسمالية" و"الرسول محمد" (ص). ونجد إلى جانب هؤلاء المفكرة الألمانية آن ماري شيمل (Annemarie SCHIMMEL) التي دافعت عن الإسلام واشتغلت بدراسته بأسلوب علمي، وثيودور نولدكه (Theodor NOLDEKE) الذي رتب سور القرآن بعد اختياره أن يعالج "تاريخ القرآن" في رسالة الدكتوراه، وروبير مانتران (Robert MANTRAN) وأندريه ريموند (Andres RAYMOND) وكلود كاهن (Claude CAHEN) ... وغيرهم.

صحيح أن الإجراءات البحثية لهؤلاء مرتبطة بالتراث الإسلامي، لكنها تشكل الفكر الاستشراقي الذي ما هو في الحقيقة سوى هذا "*العلم الذي يهتم بدراسة الحضارات الشرقية الممتدة من المغرب إلى المشرق العربي*" (https://www.universalis.fr) الهادف إلى اكتشاف مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية للمجتمعات الشرقية ودراستها كحضارة وآداب وثقافة ولغات وديانات لا أكثر.

منذ ظهور حركات الإصلاح الإسلامي التي تدعو إلى تنقية الإسلام من الشوائب التي اختلطت به واثرت عليه سلبا عبر العصور، بزغ الى الوجود مفكرون يناقشون الإشكالات التي يطرحها الإسلام حيث تظافرت مجهوداتهم في نشر العلم والدعوة الى اليقظة الفكرية للنهوض بالمسلمين، ومن بين هؤلاء مالك بن نبي الذي اشتغل بموضوع الظاهرة القرآنية في مشروعه الحضاري في بداية القرن العشرين على أساس الاعجاز القرآني. في حين يشهد النصف الثاني من القرن العشرين ظهور نخبة من المفكرين اهتموا بظاهرة عودة الديني في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وما ترتبت عنها من تحولات عميقة خاصة بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979، وحركة الطالبان عام 1994 في أفغانستان، وظهور حركات إسلاموية تنادي بالاعتماد على الدين كمرجعية وحيدة في تنظيم شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، على غرار ما كانت عليه حالة هذه المجتمعات في عهد الخلافة الإسلامية. من بين هؤلاء محمد عابد الجابري في المغرب صاحب مشروع "نقد العقل العربي" الذي اهتم بقضايا الفكر المعاصر، ونصر حامد أبو زيد في مصر الذي يلح في نقده للخطاب الديني على ضرورة استيعاب النصوص المؤسسة للإسلام بالعقل وربطها بالظروف التاريخية المحيطة بها، وبضرورة إعادة قراءة القرآن لتحديد ماهيته وقاعدة تفسيرات وتأويلات آياته. أما هلاّ وردي التونسية، فتقترح مقاربة تاريخية وعلمية في محاولتها لإبراز الظروف التي توفي فيها آخر الأنبياء

(ص) وتسلط الضوء على التوترات والصراعات التي تغذت منها طموحات أهله والصحابة في الاستيلاء على الميراث الرمزي والديني والسياسي للرسالة المحمدية.

حقا، لقد نظر هؤلاء فيما يجري في العالم الإسلامي باسم الإسلام من حروب أهلية وحوادث مؤلمة تبعث على الأسى، إلا أنهم لم يطرحوا المسائل بنفس العمق والجرأة التي طرحها بها محمد اركون الذي ساقه وعيه إلى الإلحاح على ضرورة الكف عن التلاعب بتمثلات المسلمين والاعتراف بحقهم في حرية التعبير والدعوة إلى أشكلة المنظومة الدينية الإسلامية وزعزعتها لرفع النقاب عن المسكوت عنه والمستحيل التفكير فيه في الفكر الإسلامي، وهذا ما يشكل إحدى أعمدة مشروع إسلامياته.

إشكالية البحث

نقترح في هذا البحث فحص مشروع "الإسلاميات التطبيقية" لاكتشاف ما تنطوي عليه من دلالة، وفهم إلى أي حد يمكنه أن يساهم في ايقاظ الوعي الإسلامي وتنويره ليقدر على رفع التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي.

وتتعلق الاشكالية المطروحة فيه بمقاربة أركون النقدية للعقل الإسلامي وسنجيب من خلالها على ما يلي: ما هو مضمون هذا المشروع؟ على أي مرتكزات ومرجعيات بُني؟ وما هي الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها؟ ما الذي يجعل منه استراتيجية معرفية (stratégie cognitive) كفيلة بحماية العقل الإسلامي من الزلل الذي يحول دون تحقيق تطوره؟ هل هو كفيل بإخراج العقل الإسلامي من سياجاته الدوغمائية، ليفتح أمامه آفاق فكرية جديدة؟

فرضية البحث

إذا كان أركون يتصدى للإيديولوجيات المظللة بالبحث في المميزات الأبستمولوجية للعقل الإسلامي، وإذا كان نقده لهذا لعقل في محله، فهذا يعني أنه قدم من خلال مشروعه ما يمكن ان يستفيد منه المسلمون ويستحدث فكرهم، فهو يلعب بالتالي دورا إيجابيا في الحياة الفكرية للأجيال الصاعدة.

أهمية البحث

يستمد هذا البحث أهميته من أهمية الدراسات الإسلامية ذاتها التي توفر فرص الاطلاع عليها والمقارنة بينها للوعي بمدى اختلاف مجالاتها والتعرف من خلالها على المقترحات المقدمة لحل الإشكاليات المطروحة فيها واكتشاف تطلعاتها للمجتمعات المسلمة.

منهجية البحث

لعرض محتوى المشروع وشرح معالمه، نعتمد على منهج التحليل الذي تفرضه طبيعة الموضوع المطروح مع احترام مصطلحاته المركزية، والاعتماد على مؤلفات أركون كمصادر أساسية في كتابة هذا المقال.

حدود البحث

يتعذر تغطية جميع جوانب المشروع بتفكيك إشكاليته المركزية إلى إشكاليات جزئية في مقال واحد، لذلك نلتزم الحدود التي يعبر عنها عنوان البحث دون الخوض في تفاصيله الدقيقة.

أما **الدافع** إلى اختيار هذا الموضوع فيعود إلى كون القضايا التي تتناولها الاسلاميات التطبيقية" والأجزاء التي تؤلفها، واردة بطريقة مبعثرة في كتابات أركون المختلفة. حتى الباحثون الجامعيون المهتمون بفكره، لم يتناولوا في دراساتهم إلا قضية واحدة أو اثنتين على الأكثر.

في الأخير، **نهدف** في هذه الدراسة المتواضعة اكتشاف مهام المشروع الأركوني، والتطلع إلى معرفة مقاصده لإعطائه ما يستحقه من الاعتبار.

عناصر البحث

نستهل البحث بتفسير معنى "الإسلاميات التطبيقية"بالعودة إلى تعريفات أركون لها وإرجاعها إلى مصدرها، ثم نعرض مضمونه من حيث الموضوع والمنهج، لنتطرق إلى مهام المشروع، ثم نستكمله بحصر أهدافه وننهي البحث بخاتمة تتضمن فكرة واضحة حول الموضوع مصحوبة ببعض التوصيات.

1. تعريف مشروع "الإسلاميات التطبيقية" عند محمد أركون

يدل مصطلح " الاسلاميات التطبيقية" (Islamologie appliquée) على ميدان بحث يضم تخصصات مختلفة تتناول بالدراسة الإسلام والتراث الإسلامي كمجموع النشاطات المشكلة لذاكرة الشعوب المسلمة في كل تجلياتها عقلا وممارسة، فكرا وتاريخا. و أتى بها محمد أركون كمقابل للإسلاميات الكلاسيكية الاستشراقية، وجمع في بنائها بين منوال الانثروبولوجيا التطبيقية لروجي باستيد (Roger BASTIDE) ومنوال العقلانية التطبيقية (Le rationalisme appliqué) لغاستون باشلار (Gaston BACHELARD). ورغم كل الانتقادات الموجهة له، يظهر إلى جانب أعمال الباحثين والمفكرين المعروفين في الساحة الفكرية العربية امثال محمد عابد الجابري وحامد أبو زيد وغيرهما، كأهم الدراسات النقدية، وكأكبر المشاريع الفكرية التي تتناول الدين عامة والفكر الإسلامي خاصة اعتمادا على مناهج علوم الانسان والمجتمع كالحفر والتفكيك والتحليل النقدي والألسني منذ نشأته إلى وقتنا الحالي.

يُعرّف (أركون 1996، ص 57) العلم الجديد في قوله: " *إن الإسلاميات التطبيقية هي ممارسة علمية متعددة الاختصاصات، ناتجة عن اهتماماتنا المعاصرة والمتطلبات الخاصة بموضوع دراستنا. (فهي تريد أن تكون متضامنة مع نتاجات الفكر المعاصر ومخاطره)*" ويؤكد (أركون، 1979. ص ص31-32) على تدشينه لهذا العلم في تصريحه: «*ما دعوته بالإسلاميات التطبيقية هو هذا العلم الذي دشنته، قبل بضع سنوات، يهدف إلى قراءة ماضي الإسلام وحاضره انطلاقا من خطابات المجتمعات الإسلامية والعربية وحاجياتها الحالية...*" . واعتبارا لموقفه النقدي إزاء ما أنتجه العقل الإسلامي وعلى

أساس تفحصه لآليات اشتغال هذا العقل ومدى قدرته على الاستجابة لمطالب المجتمعات الإسلامية في مراحلها التاريخية المختلفة، أعطى لمشروعه عنوانا آخر هو "نقد العقل الإسلامي" (Critique de la raison islamique)، الذي خصص له كتابا كاملا ترجمه هاشم صالح إلى العربية بعنوان جديد هو: "تاريخية الفكر العربي الإسلامي".

لقد مهد لهذا المشروع كما جاءنا على لسان (أركون 1998ص 330) أثناء اشتغاله على اطروحته لدكتوراه الدولة عن مسكويه حول موضوع *"الانسانية العربية في القرن الرابع الهجري: مسكويه فيلسوفا ومؤرخا"*. فعكف فيها على البحث عن مميزات العقل الإسلامي لتقييم اجتهاداته وانتاجاته ومشكلاته عبر المراحل التاريخية التي مر بها، واهتم فيها بكل ما يطرحه الفكر الإسلامي من قضايا مرتبطة بفهم المسلمين للنصوص التأسيسية (القرآن والحديث)، وممارساتهم الدينية وعاداتهم السلوكية والإيمانية، وما تطرحه هذه الأخيرة من إشكاليات، ترتبط بالسياسة والايديولوجيا الدوغماتية (idéologie dogmatique) التي أحدثت تغييرا ملحوظا في علاقة المسلم بموروثاته الدينية.

يضم هذا المشروع كل ما أتى به أركون من نظرية وما وظفه من مناهج في دراسة التراث الاسلامي منذ نزول الوحي على رسول اللّه (ص) الى بعد الأحداث التي هزت أمريكا يوم 11 سبتمبر 2001 وبعدها.

لقد استغرق تأليفه (أركون، 1998 ص34)، بين عامي 1967 و1984، ويعتبر نتاج *"الآثار المزدوجة لمناقشات تلك الفترة ولتوجهات البحث العلمي التي كانت سائدة فيها""* والتي ميزت المناخ الفكري للمرحلة التي عقبت ظهور البنيوية في ميدان علوم الإنسان والمجتمع، في الساحة الفرنسية في منتصف القرن العشرين، وقسمت الاساتذة الباحثين والمفكرين إلى المحافظين المتمسكين بمنهجيات البحث القديمة السائدة في جامعة السوربون، وإلى أنصار المنهجيات الجديدة من بنيوية وتاريخية وحفرية، أمثال كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) وفرناند برودل (Fernand Braudel)، ومشال فوكو(Michel Foucault) ، وجون بول سارتر (Jean Paul Sartre)ورونالد بارت Roland) (Barthes... إلخ. حسب (المصدر ذاته، ص 35) إنها المرحلة التي ظهرت فيها البنيوية التي اعتبرها هؤلاء الباحثين حلا للمشاكل المعرفية المطروحة آنذاك، وفرصة للتخلص من هيمنة منهجيات البحث التقليدية.

أما ما دفع المفكر إلى البحث في التراث الإسلامي، فهو ما لاحظه من أرثدوكسية[1] تزيد انغلاقا للمجتمعات الإسلامية، ومن تصاعد لعنف ديني يهدد أمن واستقرار المجتمعات المعاصرة. يتساءل أمين الزاوي (Zaoui, 2018,p 29) : *"لماذا يريد المسلمون العودة الى الماضي للاستقرار فيه؟"*، مجيبا عليه في الحين، أن *"المسلمون يريدون الحفاظ على عقيدتهم الدينية كما كانت في زمن نزول الوحي، إنهم يخافون من التغيير، ويتصورون أنفسهم في الحرب العادلة بصورة مستمرة"*(Ibid). حقا، يثير الموقف التبجيلي للماضي خوفا من وضع هذا الماضي في مقام مشروع مستقبلي للمجتمعات الإسلامية.

2. مضمون مشروع "الإسلاميات التطبيقية" عند محمد أركون

يضم مشروع "الاسلاميات التطبيقية" كل الورشات التي فتحها محمد أركون للقيام بعمليات تشريح العقل الإسلامي ليبين من خلالها ما يميز الظاهرة الاسلامية عن الظاهرة القرآنية، وما يفرق بين الخطاب الاسلامي والخطاب القرآني من جهة، وليوضح كيف أن الاسلام كتشكيلة بشرية قابل للفحص المنطقي والنقد التاريخي لفهم حقيقة ما هو سائد في الساحتين الإسلامية والعربية من جهة أخرى، مما يبرر دعوته الحثيثة إلى القطيعة مع الإسلاميات الكلاسيكية التي استحوذ عليها المستشرقون. إلى جانب ذلك، يسعى من وراء هذا المشروع واعتمادا على المنهجيات العلمية الحديثة مثل آليات تحليل الخطاب، إلى إعادة قراءة النصوص الدينية وتفسيرها لاستنطاق المسكوت عنه والمستحيل التفكير فيه في الفكر الإسلامي بصفة عامة، كما يهدف (أركون، 1979، ص ص 31، 32) في الوقت ذاته "*إلى إثارة اهتمام الجمهور الأوسع دون أن يتعرض لخطر إدانته أو الرفض العنجهي أو حتى اللامبالاة من قبل البحّاثة المتبحرين*" الذين يمكن أن يسيئوا فهم الفكر الاسلامي وتأويل القرآن. لذلك يقترح فيه فرضيات تفسيرية ونظريات تحمل في باطنها الحلول التي توفر في نظره شروط وفرص لتجاوز العقبات التي تحول دون التفكير العقلاني في الشؤون الدنيوية والآخروية للعرب والمسلمين.

حقا، يلاحظ قارئ "نقد العقل الإسلامي"، أن العناصر المكونة لمشروعه الفكري من معالم وأهداف واردة فيه، ويثبت ذلك (أركون، 1996، ص 11) بقوله: "*ليست النصوص المجموعة بين دفتي هذا الكتاب إلا معالم على الطريق الطويل والصعب لتأسيس تاريخ متفتح وتطبيقي للفكر الإسلامي*"، مؤكدا بهذا الكلام على مدى اهتمامه بتجليات الفكر الإسلامي لدراستها ومحاولة الارتقاء بالمنتوج الفكري للعقل الإسلامي إلى أعلى مستوى ممكن، حتى يقدر على كسر طوق الضغط الذي فرضه عليه الفكر الثيولوجي القروسطي إلى حد الآن، ولمساعدته على تجاوز الطابوهات التي تؤخره حتى يتفتح على التساؤلات النقدية البناءة كما تمارس في المجتمعات المتقدمة منذ الأنوار الغربية.

ولم يقتصر مشروع محمد أركون على تناول الفكر الإسلامي بالدراسة النقدية وحده، وإنما يستهدف بنقده الفكر الغربي كذلك. فرغم انخراطه في الثقافة الغربية منذ شبابه، إلا أنه يرفض الانسياق إلى هذا الفكر بعفوية عمياء، ويتبين ذلك في محاولات تبريره للأجوبة الحادة التي يقدمها للأحكام المسبقة المنتشرة في الأوساط العربية - الإسلامية والساحات الغربية وذلك "*ليس فقط من أجل التنديد بالجهل العام، وإنما من أجل التنديد بالموقف السائد للفكر الغربي تجاه الثقافات الأخرى التي لا يتحكم بمسارها وتطورها عن طريق فرض نماذجه وقوالبه عليها*" (أركون، 1979، ص 32)، وعليه إننا نفهم أن غرضه في الحالة الأولى هو تحرير العقل الإسلامي من التعصب الذي تفرضه عليه ثيولوجيا القرون الوسطى وإيديولوجيات الكفاح. أما في الحالة الثانية فهو يحث الغربيين على التخلي عن النظرة الاثنوغرافية والأرومركزية التي يحملونها اتجاه الشعوب والثقافات غير الغربية.

تهتم "الإسلاميات التطبيقية" بدراسة الإسلام والفكر الإسلامي من حيث:

3. الموضوع الذي يطرحه مشروع "الإسلاميات التطبيقية"

يهتم مشروع أركون بدراسة الإسلام من حيث هو دين توحيدي، ويضع في الحسبان كل ما يرتبط به من تجربة إسلامية خاصة بمرحلة نزول القرآن. إنه يتعامل معه كتشكيلة بشرية ليسهل فهم التراث كمجموع العادات والتقاليد والممارسات التي نجدها عند المسلمين حسب مذاهبهم ونزعاتهم.

إنه يهتم بإشكالية العقل الإسلامي كمنتوج لمخيال جماعي من الضروري إعادة النظر في مفهومه ووظيفته وطريقة اشتغاله في ظل السياقات الإسلامية الكلاسيكية للانتقال منه إلى عقل منبثق كفيل ببلورة مفهوم التراث من جديد كتراث حي قابل للتفتح على منجزات الحداثة والمعاصرة. حيث يقول (ARKOUN, 1982, P19) بهذا الشأن: *"يتعلق الأمر بمحاولة فهم مقاربات الفكر الإسلامي الكلاسيكي للقرآن، وفتح آفاق جديدة لمقاربة حداثية للنص التأسيسي"*، وبهذا المعنى، يكون نقده نقدا تاريخيا للتجربة الإسلامية، يسعى من وراءه إلى تحرير العقل الإسلامي من التصورات الهشة الموروثة عن الذهنية السلفية الثائرة ضد كل محاولة للنقاش فيها.

أ. المنهج الذي يوظفه مشروع "الإسلاميات التطبيقية"

لم يكن أركون يحبذ أن يدع فكره يسير دون قيد آليات الاستدلال المنطقي، فهو متمسك بمنهجية بحثية تتميز بصرامة قواعد المنطق الكفيلة بشحذ قدرة العقل على استعمال تقنيات التفكيك والحفر والنقد والتركيب، ليجبره على التساؤل الجذري والكلي بصدد مرجعيات الفكر الإسلامي وخلفياته وتاريخه. لذلك نجده يبتعد عن المقاربات السطحية والميثولوجية المتميزة بالذاتية للحادثة الدينية، كما يعمل على محاربة كل الايديولوجيات التي تحرّم تناول الظاهرة الإسلامية بالدراسة بدعوى أنها تستغني عن التساؤل، ليضع على محك التحليل التناقضات التي تتخلل تاريخ الفكر الإسلامي أولا، وليدقق الفحص فيما يميز العالم الإسلامي عن العالم الغربي فكرا وحضارة ثانيا.

صحيح أن الإسلام بمعناه البسيط يعني الاستسلام لأمر اللّه ايمانا به، إلا أنه كما يرى (جانين ودومينيك سورديل، 2009، ص 102) "*هو الذي يقود الى الإقرار الايماني الصريح بالشهادة وإلى التزام الواجبات التي يفرضها الشرع، ولكن ليس هو الإيمان، بل يمكن أن يتناقض مع الإيمان الذي هو قبول داخلي بالديانة*"، ومن هنا يمكن أن نجد إسلاما بلا إيمان، وهذا يدعو إلى التساؤل عما إذا كان الاستسلام الكامل للّه والخضوع لتعاليمه من غير التفكير يعني حتما الإيمان؟ فما التوحيد ما لم يتساءل المرء عن معناه وعن قيمته والهدف من وراءه؟ لقد انتبه أركون إلى هذه المسألة، وحتى لا يترك الإسلام خارج التاريخ، وفتح له مجال البحث في إطاره التاريخي حيث يرى أن فهم الدين لا يتم بطريقة سليمة إلا بربطه بماضيه وبمناقشة مفهوم الهوية الدينية التي حلت محل الهوية الوطنية في معظم المجتمعات الإسلامية.

كفيلسوف وكمؤرخ للفكر الإسلامي، يهتم أركون اهتماما بالغا بفكرة وجوب إخضاع الفكر الديني للتحليل العلمي إذ يرى (أركون، 1991 ص7) أنه، "*لم تعد مسألة الدين أو الإيمان أو الروحيات*

تخيف العلماء المعاصرين أو تجعلهم يشعرون بالنفور منها كلما أثيرت باعتبار أنها أشياء "رجعية" تعود إلى عصور مضت وانقضت"، بل على العكس من ذلك، إنها تندرج ضمن اهتمامات المفكرين والعلماء مهما اختلفوا في اختصاصاتهم وفي مذاهبهم ومشاربهم. الحقيقة أن طريقة فهمها واستيعابها، "*هي التي تختلف عما كان عليه الحال لدى المؤمنين التقليديين المسجونين داخل "السياج الدوغمائي المغلق*" (نفس المصدر). وما يريد بيانه هنا، هو أن البشر في طبيعته بحاجة إلى الإيمان العقلاني المبني على الإدراك العقلي للحقائق ولو كانت متعلقة بالحياة الروحية، والأمر هنا كما يعتقد لا يستبعد استعمال المناهج العلمية لأنه "*لا يعني إطلاقا القيام بعمل سلبي أو تدميري كما قد يفهمه بعضهم، ولا يعني أبدا المساس بالتجربة الروحية الكبرى للإسلام الحنيف*" (المصدر ذاته)، وإنما حفضها من كل ما يمكن أن يسيء إليها. لهذا الغرض يجتهد في استثمار مقاربات علوم الإنسان والمجتمع كالمنهج الانثربولوجي في مقاربة العنف الديني، والمنهج اللساني أو الدلالي في تحليل الخطاب القرآني، والخطاب الإسلامي لبيان خلفياته، والمنهج الحفري لاستنطاق المسكوت عنه والمستحيل التفكير فيه لأسباب أيديولوجية. إن المعاني التي تعطى للتراث في نظر أركون غير ثابتة، بل هي رهينة تفسيرات ومواقف أصحابها، ولهذا السبب يجب إخضاعه للنقد التاريخي.

يؤكد أركون في معظم كتاباته على أن استخدامه للنقد التاريخي اتجاه العقل الإسلامي هو استخدام منهجي علمي يقوم من خلاله بفحص ما دخل على الإسلام وأثّر فيه منذ اللحظات الأسطورية التدشينية الأولى لتاريخ الإسلام كما يسميها. فهو في الحقيقة نقد يرفض عن طريقه لأي تيار فكري كان، ولأي مذهب سياسي أو ديني كان أن يحتكر الإسلام لوحده، لأن الإسلام لكل من آمن به واعتنقه. حقا، النقد من هذا المنظور يحمل في طياته بعدا علميا قائما على مبدأ فصل التاريخ عن الوحي، لأن هذا الفصل هو الذي يضع حدا للتلاعب بالدين وتوظيفه لأغراض دنيوية محضة لا تخدم الإيمان، وهذا دفعه إلى فتح ورشة خصصها للدراسات الأركيولوجية والأبحاث التاريخية والسوسيولوجية ليساهم بها في تفسير أسباب غياب الأطر الاجتماعية للمعرفة كعوامل نجاح او فشل العقل في كل مكان عبر الزمن.

في النهاية، يظهر للمُتمعن في المشروع الاركوني، أنه يحمل في طياته بذورا لفكر واعد بتوفير الشروط الضرورية للتفتح والنضال من أجل الاستقلالية الفكرية التي لا تستطيع إلا أن تعترف "بحق *الانسان في مواصلة البحث العلمي القائم على التجريب والعيان*" (أركون، 1996، ص 20)، وتضمن حق بناء هرمينوطيقا دينية على أسس موضوعية متينة كفيلة بالتفسير الصادق والأمين للآيات القرآنية. وبهذا، لقد أرسى مبادئ لإبستيمية إسلامية (épistémè islamique) قال (أركون، 1996. ص 11) بشأنها: " *أني أحرص على الالتزام بمبادئ المعرفة العلمية واحترام حقوقها مهما يكن الثمن الإيديولوجي والسيكولوجي والاجتماعي الذي ينبغي دفعه للقيام بذلك (أو نتيجة القيام بذلك) باهظا*".

4. مهام مشروع "الإسلاميات التطبيقية" عند محمد أركون

كبقية المثقفين الملتزمين، يشعر أركون عندما يتفحص الانتاج الثقافي للعقل الاسلامي، بصعوبة إنجازه، ويصرح بذلك (أركون، 1996، ص 11) في القول أنه *"لم يعتد مؤرخ الفكر على أن يجمع بين كل هذه الاهتمامات (الهموم)، ويفتح كل هذه المنظورات، ويتابع كل هذه المهمات في نفس الحركة الواحدة من الفكر والكتابة"*، واعترافا منه بصعوبة وشدة تعقيد بناء أي مشروع جاد يواصل (نفس المصدر، نفس الصفحة) قولا: *"يتعذر إنجازه تماما منذ المحاولات الأولى"*. فرغم ذلك، ومن غير ادعاء بأي نجاح في عمله، إنه يحدد المهمات التي تبناها فيما يلي:

أولا: من مهام مشروع (أركون، 1996. ص 11) *"إدخال نوع من البحث الحي الذي يفكر ويتأمل بمشاكل الأمس واليوم، إما من أجل توحيد ساحة المعاني المتشظية والمبعثرة، وإما من أجل مواجهة الآثار المدمرة للإيديولوجيات الرسمية"*. فهو بهذا الكلام يبين ضرورة إسناد البحث في التراث الإسلامي الى مبادئ العلم وصفاته ومتطلباته، لتجاوز مفهوم الدراسة التقليدية التي تكتفي بسرد الاحداث وذكر أسماء العظماء وتبجيلها.

ثانيا: يحدد لمشروعه مهمة تاريخية علمية تتميز عن مهمة الايديولوجيات التي تُسند التاريخ إلى فرضيات تنص على ثباته وتضفي عليه قيمة ودلالات فوق تاريخية لا تضع في الحسبان العوامل الاجتماعية والانثربولوجية والاقتصادية والثقافية والسياسية المرافقة للحوادث المؤثرة فيها. يقول (أركون 1996. ص 58) بهذا الصدد «لما *كان الهدف النهائي للإسلاميات التطبيقية هو خلق الظروف الملائمة لممارسة فكر إسلامي محرر من المحرمات (tabous) العتيقة والميثولوجيا البالية، محررا من الأيديولوجيا الناشئة حديثا، فإننا ننطلق من المشاكل الحاضرة، ومن الأسلوب الذي عولجت به هذه المشاكل في المجتمعات* الإسلامية".

ثالثا: لا ريب أن المفكر يهدف إلى إصلاح المنظومة الدينية الإسلامية بالفصل بين ما هو تاريخي وما ينعته بالميثي *(mythique)* وليس الأسطوري (légendaire)، مبررا ذلك بالقول:" *لأني أدركت مرارا أن القراء العرب الذين لم يطلعوا على المعاني الفلسفية الغزيرة والمقصود الأنثربولوجي الخصب لمفهوم (mythe) يقعون في أغلاط خطرة وسوء التفاهم يؤدي إلى الجدل العقيم"* (أركون، 1985، ص 13). إنه يغتنم بهذا المثال فرصة التعبير عن صعوبة ترجمة بعض المصطلحات من اللغة الفرنسية إلى اللسان العربي مصرحا «بأن *هذا المثل واحد من" أمثال عديدة تدل على الصعوبة اللغوية التي أشرت إليها، وقل مثل ذلك في مفهومات أساسية كالعقلانية والعقلنة (Rationalisme/Rationalité) والعلمانية والعلمنة (Laicisme/ Laicité)"* (أركون، 1996، ص 10).

يتساءل أركون هنا عن كيف يمكن ترجمة ما تعبر عنه المصطلحات الفرنسية مثل (scientismeو rationalisation)، وكيف يوضح للعقل العامي ما هو تشكيلة بشرية ليحمي القرآن من كل تأويل فاسد وتلاعب يخدم مصالح العبد: إنه يرفض توظيف القرآن الذي هو

جوهر الدين الإسلامي لتحقيق أغراض تعطي صورة خاطئة للإيمان وتنزع الروحية عن الممارسات العقائدية للمسلمين.

كما أسلفنا القول، لم يتجرأ الباحثون قبله على الذهاب بعيدا في أعمالهم البحثية وينبهنا (أركون. 1998 ص ص 330، 331) إلى ذلك في كلامه: *"أعتقد أن الجابري يساهم في حركة الاستهلاك الإيديولوجي للتراث. بمعنى آخر، إنه يحاول أن يظهر مزايا الفترة الكلاسيكية (أو العصر الذهبي من عمر الحضارة العربية الإسلامية)، ويحاول إقناع عرب اليوم بأنه كان لهم يوما ما ماض مجيد، وأنهم يستطيعون الاعتماد عليه لكي يواجهوا الحداثة الأوربية"* ونفهم من خلال هذا الكلام، أن ما جاء به محمد عابد الجابري هو نوع من التبجيل والافتخار بالماضي، إلا أن الافتخار بالأمجاد وتبجيل ما قاموا به لا يخدم العقل الفردي ولا العقل الجمعي، ولا يحل الأزمات الفكرية، وإنما يدعم الأيديولوجيا السائدة. وعليه، من الضروري التسلح بالنقد البناء لإحداث ثورة فكرية لتغيير الوضع القائم: فمن النقد ينطلق التغيير وبه يحدث التطور.

بطبيعة الحال، لا يرفض أركون هنا ما جاء به الجابري، وإنما يعتبره مجرد وسيلة لتجاوز العقبات التي يصطدم بها العقل الإسلامي يوميا: يتحاشى الجابري نقد العقل الإسلامي، ليستبدله بنقد العقل العربي، والعقل العربي في نظر أركون عقل ديني بالدرجة الأولى، والمشكلة المطروحة هي أن "العقل العربي هو نفسه عقل ديني، أو قل لم يتجاوز بعد المرحلة الدينية من الوجود. فكيف يمكنك أن تنقد العقل العربي دون أن نتقد العقل الديني؟!" (أركون. 1998. ص 331). معظم المشاكل المطروحة في المجتمعات العربية تحمل طابعا دينيا بالدرجة الأولى، ومن منظور أركون العقل اللاهوتي هو الذي يؤطر عقل العرب إلى اليوم.

ليس أركون وحده الذي يفكر في إصلاح الفكر والعالم الإسلاميين، بل اشتغل مفكرون كثيرون حول القضية من بينهم نور الدين بوكروح الذي انتهى في اجتهاده إلى التأكيد على ضرورة إعادة النظر في مسألة الدين قائلا: *" ظل إصلاح الإسلام من الداخل أمرا قطعيا، لأنه كنظام قيم (système de valeurs) وكدين رائد (religion majeure) وهام للإنسانية، إنه مهدد بخطر لاوعي بعض العلماء ووحشية أشباه الآدميين"*(humanoïde) . (Boukrouh 2016, P 9).

أخيرا، يتبين أن مهمات مشروع "الاسلاميات التطبيقية"، النقدية اتجاه العقل الإسلامي لا تحمل في طياتها المعنى السلبي للشك المتزمت، إنما هي عملية نقد منهجية تروم زعزعة الثوابت التي بُنى عليها الفكر الإسلامي، لفتح المجال واسعا أمام التصور الصادق للإيمان ولتعليم احترام حرية التفكير والاختلاف.

5. أهداف مشروع "الإسلاميات اتطبيقية"

يظهر مشروع اركون تجاوزي (Transcendantal) يصر من خلاله على الدفاع عن الإسلام بالرد على الهجومات التي تسيئ إليه، ويحث في نفس الوقت على الاستفادة من المكتسبات المعرفية التي

أفرزتها أنوار الحداثة الغربية. وتدل ثنائية موقفه على رغبته في تهيئة شروط تدشين مجتمعات واعية بتاريخها وتاريخ غيرها تكون قادرة على بناء مستقبل الإنسانية، وهذا يعكس اجتهاد (أركون، 1996. ص 11) في عمله على ""*تأسيس لتاريخ تطبيقي عملي في نفس حركة البحث ذاتها، لأنه يهدف إلى تلبية وآمال الفكر الإسلامي المعاصر وسد نواقصه منذ أن كان هذا الفكر قد اضطر إلى مواجهة الحداثة المادية والعقلية.*"

لا يقتصر تأسيس التاريخ في صيغة المستقبل عند أركون على الأهداف التي يحملها مشروعه للمسلمين والمجتمعات الإسلامية وحدها، بل يريدها للمجتمعات الانسانية كلها. إنه يأمل في بناء تاريخ جديد يطلق عليه أركون اسم "التاريخ التضامني" إلا أن بناء هذا التاريخ يتطلب توفير شروط هي:

- فهم ما عاشته هذه المجتمعات من تجارب ماضية فهما موضوعيا،
- الانطلاق من دراسات جديدة للفكر الإسلامي والغربي معا،
- بناء علاقة صحية وصريحة بين الاسلام والغرب.

في النهاية، يتقدم إلينا مشروع "الإسلاميات التطبيقية" في أبعاده المختلفة:

أ.كمشروع ابستمولوجي : تعتبر دعوة أركون إلى توظيف مناهج علوم الانسان والمجتمع مبادرة لبناء ابستمولوجيا الفكر الإسلامي (épistémologie de la pensée islamique) يمكن أن تتجسد في موقف علمي إزاء الإسلام لتأسيس فكرا إسلاميا قادر على بعث الروح العلمية والفلسفية المؤهلة لفهم الظاهرة الدينية وما يرتبط بها، بخلق الشروط الضرورية وتسلح العقل الإسلامي بما يجعله كفيلا بالتمييز بين ما هو ميثولوجي وإيديولوجي وما هو تاريخي للارتقاء بالخطاب الإسلامي إلى خطاب أبستمولوجي يكشف عن طبيعة العقل الإسلامي وحدوده، وطريقة اشتغاله ومشكلاته وأهدافه. فرغم نقد أركون للعقل الإسلامي، إلا أنه لا ينظر إليه بعين مُحتقرة، وإنما يؤمن بديناميكيته، وقدرته على اكتشاف حقيقة الوقائع التاريخية المرتبطة بتطور الحادثة الدينية، لذلك يدعو إلى تحفيزه للتوغل داخل الطبقات المتراكمة المشكّلة للتراث الإسلامي وغير الإسلامي لسبر أغواره.

ب-كمشروع إصلاحي: يتجلى البعد الإصلاحي لمشروع أركون في علاقته الايمانية بالتطور الذي يمس كل ما خلقه اللّه تعالى على وجه الأرض بما فيه الفكر. إنه بمثابة مبادرة تحسيسية بوعي ديني غير منفصل عن النقد الفلسفي لحقيقة ما يحدث في واقع تغيب فيه ثقافة المواطنة والتبادل والتسامح. إنه مشروع يحمل في ثناياه تنظيرا لوعي ديني يوفق بين الإيمان والعقل.

فعلا، يطرح اركون قضية إصلاح الفكر الديني كضرورة اجتماعية وسياسية وفكرية، لأنه علاوة على كون الإصلاح عاملا إيجابيا في حل الصراعات المذهبية، فانه يشكل وسيلة ورد فعل تتصدى به الشعوب الإسلامية لهيمنة الدول الغربية اتجاه المجتمعات الشرقية والمغاربية. وتلك هي الأسباب التي ساقت أركون إلى التنظير لليقظة الدينية لعله يمنح فرص التفكير المستقل الكفيل بتحطيم العوائق الداخلية والخارجية التي تحول دون تحقيق تنويرها.

ج. كمشروع تنويري: تظهر "الإسلاميات التطبيقية" في هيئة فكر تركز على سيادة العقل الباحث عن أنجع السبل للسير نحو خلق النهضة الفكرية المؤيدة للعلم والفلسفة، ونحو بناء فكر يصلح لمجتمعات معولمة. فرغم احترام أركون للمنظومات المعرفية التي جاء بها سابقوه، فهو يحاول ان يوفر لأبناء الحداثة مبادئ واليات التفكير المؤهلة لتجاوز الإيديولوجيات المظللة، والمسايرة لتطور وسائل المعرفة والبحث للانتفاع بأفضل ما فيها، ولا يجرأ على ذلك إلا "العقل المنبثق (la raison émergente). نقرأ بهذا الصدد في إحدى كتابات (أركون، 1999، ص ص 13 و14): "*بقي ان أبرر ادعائي الأساسي بانه هناك عقلا منبثقا لا يقبل الانفصال النهائي عما تلقاه من اعمال ومنظومات ومذاهب انجزها العقل الديني والعقل الميتافيزيقي في الماضي، شريطة ان يعيد النظر في جميع ما ورثناه*".

يشكل العقل المنبثق في نظر اركون إحدى الركائز الأساسية التي تضمن التنوير الذي بفضله يتم استيعاب التكوين التاريخي للتراث ويتحقق تجديد الفكر العربي-الإسلامي كما يقول (Arkoun 2007, p 39) "*باتخاذ مواقف تمنع التورط مرة أخرى في بناء منظومة يمكن ان تشكل سياجا دوغمائيا جديدا*" سيتعذر الخروج منه.

خاتمة ونتائج الدراسة

بعد النظر في أهم ما يؤسس مشروع "الإسلاميات التطبيقية" موضوعا ومنهجا ومرجعية وهدفا، يمكننا أن نقول في هذه الخطوة المتقدمة من البحث: لا غرو الجزم أن محمد أركون لم يأتِ بالجديد في دراساته للتراث الإسلامي، بدعوى أنه وظّف الترسانة المفهومية المستعملة في الدراسات العلمية الغربية، ولا يمكن اختزال هذا المشروع في مجرد نقد تعسفي يستعمله أركون كذريعة لرفض الإسلام، رغم خروجه عن الأطر التقليدية في مقاربته النقدية للقضايا المتعلقة بالإسلام، إن التمعن فيما جاء به، يثبت لنا أن نقده للعقل الإسلامي في الحقيقة نقد منهجي يخطو نحو المعرفة الصحيحة لتاريخ الفكر الإسلامي وما يتميز به ليُجرده من الشوائب التي تدنسه وتكبح نمو العقل وتعرقله في سيره في اتجاه التحضر والمعرفة. فهو غير موجه للقرآن، ولا يعتبر رفضا للوحي أو تفنيدا لوجود اللّه وللكتب السماوية. إنه لا يعني المساس بقدسية المتعالي، وإنما هو نقد للتجربة الإسلامية والممارسات الدينية والدوغمائية المغلقة وسياجاتها، بل هو تفحص للوضع الذي آل إليه العقل الإسلامي قصد تصويبه على حد تعبير أركون، وعليه توصلنا إلى النتائج التالية:

- أركون مفكر تنويري كرس حياته من أجل النهوض بالمجتمعات العربية والإسلامية حتى تسير في موكب التحضر والمعرفة، فهو:
- يبين عيوب تبجيل الماضي وأخطار التمسك بالعصبيات المذهبية والطائفية والتوظيف السياسي للدين،
- يركز على الجانب الروحي للإسلام الذي طغت عليه الطقوس والشعائر،
- يظهر مشروع "الإسلاميات التطبيقية" كعرض حال لواقع المجتمعات العربية-الإسلامية، و"كاستراتيجية معرفية للتدخل" (stratégie cognitive d'intervention) لإصلاح الوضع السائد فيها في آن معا،

- يعد المشروع خطوة مفيدة نحو بناء فلسفة نقدية تهتم بدراسة الديانات كفكر وتاريخ وكممارسات اعتقادية غير ثابتة،
- أخيرا، يمكن اعتباره مرجعية تنطلق منها الأجيال الصاعدة في بناء إسلام خال من الشبهات.

توصيات:

نظرا لمميزات المشروع المشجعة لفتح باب الاجتهاد والمناظرة، ونظرا لتعقيده وصعوبة اكتشاف سر كونه مشروعا فكريا، نقترح التوصيات الآتية:

- تجاوز الطابوهات المرتبطة بفكر محمد أركون،
- إعادة الاعتبار للمشروع والعناية به والعمل على توفير الشروط العلمية والإرادة السياسية التي يتطلبها حتى يحظى بالاهتمام الذي يستحقه،
- التفكير في تبسيطه وتلخيصه ثم نشره ليكون في متناول الجميع،
- الارتقاء بالعقل الإسلامي إلى مستوى التفكير العلمي، حتى يولد خطابات تكون بمثابة اللوغوس الإسلامي الذي يضمن صدق تفسير القرآن والحديث،
- إدراجه ضمن برامج التعليم الثانوي والجامعي، والاعتماد في تدريسه على "الأشكلة الأنثربولوجية" للدين لفهم طبيعة الانسان "ونفسية المتدين ونسبية ثقافته الدينية، وتلك هي أفضل طريقة للالتزام بمواصلة العمل الذي مهّد له رحمة اللّه عليه.

قائمة المصادر والمراجع العربية

اولا: المراجع باللغة العربية

- أركون، محمد. (1996). *تاريخية الفكر العربي الإسلامي*. ترجمة هاشم صالح (ط2). بيروت / الدار البيضاء: مركز الإنماء القومي/ المركز الثقافي العربي.
- أركون، محمد. (بدون تاريخ). *الفكر الإسلامي نقد واجتهاد*. ترجمة وتعليق هاشم صالح. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب/ لافوميك.
- أركون، محمد. (1998). *قضايا في نقد العقل الديني*. كيف نفهم الاسلام اليوم؟ ترجمة هاشم صالح . بيروت. دار الطليعة.
- أركون، محمد. (1991). *من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي*، ترجمة هاشم صالح. (ط1). لبنان. دار الساقي.
- أركون، محمد. (1985). *الفكر العربي*. ترجمة عادل العوا. (ط3). باريس/ بيروت. PUF/ منشورات عويدات.
- أركون،محمد. (1996). *نزعة الانسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيدي*. ترجمة هاشم صالح (ط1). بيروت. دار الساقي.
- أركون،محمد.(1999). *الفكر الاصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي*. ت. هاشم صالح. (ط1). بيروت. دار الساقي.

- سورديل، جانين ودومينيك(Janine &Dominique Sourdel ،(2009). *معجم الإسلام التاريخي*، ترجمة أ. الحكيّم، مراجعة ه. الأيوبي و إ. بيضون و ف. الكيك. لبنان. الدار اللبنانية للنشر الجامعي.

ثانيا: المراجع باللغة الاجنبية

- Zaoui, Amine. (2018). *La boite noire de l'Islam, le sacré et la discorde contemporaine*. Alger. Éd. Tafat/ Essai
- ARKOUN, Mohammed. (1982). *Lectures du Coran*. Paris. Ed. Maisonneuve & Larose.
- Arkoun, Mohammed. (2007). *Humanisme et Islam ; Combats & Propositions*. Algérie. Éd. Barzakh
- Boukrouh,Nour-Eddine.(2016). *La nécessaire rénovation de l'Islam*.Algeri. Éd. Dar Samar.
- https://www.universalis.fr/encyclopedie/orientalisme-art-et-litterature/#i_0
- Madeleine Grawitz (1976). *Méthodes des sciences sociales*. Paris. Ed. Dalloz.

[1] - الأرثودكسية (orthodoxie) هو مصطلح محوري في فكر أركون يستعمله بالمعنى العام للكلمة اليونانية التي تتكون من كلمتين هما: أورتس (orthós): التي تعني الصحيح أوالصادق والمستقيم، ودوكسا (doxa) أي الرأي، ليدل المصطلح على الرأي المستقيم. يوظفه أيضا ليدل على التيارات الأصولية في الديانات المختلفة بما فيها الإسلام، لينعت به الأفكار والمواقف المتزمتة التي تجعل من اجتهادات المفسرين القدامى المرجعية الوحيدة والصحيحة التي لا يحق الخروج عنها، ليصبح من يخرج عنها مخالفًا للقانون الديني.

أنظر: كتاب "من الاجتهاد إلى نقد العقل الاسلامي" هامش ص 35، و "نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية"، سنة 2011 ص304.